مفهوم الأدب النسائي

هل هناك أدب نسائي؟

إنه سؤال تردد كثيراً على مسامعي ، وارتسمت عناوينه أمام عيني ـ وخاصة في الربع الأخير من القرن العشرين ـ فنجد أن (رامان سلدن) في كتابة النظرية الأدبية المعاصرة يطلق علية النقد النسائي ، ويستهل الكلام فيه بمقولة أرسطو التي يقول فيها (إن الأنثى أنثى بفضل ما تفتقر إليه من خصائص) ، وذهب القديس توما الأكويني إلى أن المرأة (رجل ناقص).[١٥]

وهو تعبير يوحي بعدم اكتمال القدرات العقلية عند المرأة ، وهذا يذكرنا بهجوم العقاد الشديد على نظم المرأة للشعر ، فقد كانت لديه فكرة سائدة ، أكدها في قوله (إن المرأة لا يمكنها التفوق في نظم الشعر، فجوهر الأنوثة هو التحفظ ، فيما عدا التعبير عن الحزن) .[١٦]

وهو يقصد بذلك الشاعرات العربيات في العهد الأول منذ الجاهلية والعصر الإسلامي : كالخنساء ، وليلى الأخيلية ، وغيرهما من شاعرات العرب اللاتي قصرن شعرهن على نمط على نمط واحد برعن فيه ، وهو النمط الرثائي المعبر عن نبرة الحزن الدفينة والشديدة عند المرأة ..

فالمرأة تحاول دوماً البحث عن مناخٍ يوفر لها جانباً من الحماية بعيداً عن سلطوية الرجل وقهره ومن ثم جاءت كتابات المرأة في النصف الثاني من القرن العشرين لتعبر عن هذا الجانب رافضة لكل الاتجاهات التي جعلت منها رمزاً للأمومة والدفء والحنان ، فحاولت أن تبرهن على عدم ضعفها ومدى قوتها ، وهو ما أكدته (سارا ميلر) في كتابها (الخطاب) وذلك بقولها ، (إن العمل النسائي الحديث تحرك من كونه رؤية المرأة كمجموعات مضطهدة أو كضحايا لسيطرة الرجال إلى محاولة لصياغة الطرق في تحليل القوة كما أظهرت نفسها وقاومت علاقات الحياة اليومية).(١٧)

ومن ثم فإنها انطلقت تعبر عن نفسها حريصة على إبراز ذاتها مقتنعة بهذا الدور الذي يجب أن تقوم به ، فانعكس ذلك على توجهاتها الشعرية أو النثرية التي تجسد في محورها وعبر أطرها مجموعة من الأمور التي تهتم بقضايا المرأة..

ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نقارن بين أدب المرأة قديماً أو حديثاً ، ولكن علينا أن نفرق بين المحاور الموضوعية التي انطلقت منها المرأة العربية قديماً قياساً على ما وصلت إلية المرأة المعاصرة..

فالناقد الأدبي حينما ينظر إلى أدب المرأة يجب أن ينظر إلى المرأة وحياتها التي تزخر بإبداعاتها السلوكية والمعيارية التي تمكنها من مقاومة كل مضاعفات المشقة التي تواجهها ..

ومن ثم فإن حياتها تتحول إلى طاقة مبدعة داخل كل هذا الإطار المحاط بالظل ؛ من أجل أن تحافظ على استمرار كينونتها ووجودها ..

وهذا في حد ذاته يعطى انطباعا بأن المرأة لم تكن مهمشة أو محرومة من التعبير عن مشاعرها ورؤيتها لنفسها ولدورها في الحياة.

وحينما نتعرض لإبداع المرأة العربية فإننا لا يمكن أن نغفل أمراً مهماً وهو أن أكثر الإشكالات المتعلقة بالمواضيع النسوية تعقيداً يرتبط بالبعد الاجتماعي ، كما أن كافة الدراسات عندما تطرقت إلى إبداع المرأة تطرقت إلى هذا المنتج الأدبي ومدى تعبيره عن الظروف المحيطة..

كما أننا لا يجب أن نغفل أننا عندما نتحدث عن المرأة فإننا نخوض في عالم متغاير الخواص والعناصر ، متباين التجارب وغير متجانس حتى على مستوى الخصوصيات ..

حتى وإن قلنا: بأن الإبداع قاسم مشترك بين الطرفين فهذا لا يعنى عدم وجود خصوصية في تجربة المرأة العربية التي تحتاج إلى وقت..

فالإبداع هو حالة إنسانية تعيشها المرأة كما يعيشها الرجل ، ولا يوجد ما يميز البشر في عملية الإبداع إلا ظروفهم الاجتماعية ، وقدراتهم المختلفة على التعبير والخلق ، كما أن الإبداع ليس حالة مؤقتة ترتبط بفترة زمنية معينة ؛ بل حالة من الشعور المتدفق المستمر مع الإنسان على كافة مراحله العمرية..

نعم هناك حالة من الجفاء الشديد للإبداع الخاص بالمرأة ، وخاصة في أدبنا العربي القديم ؛ فحينما يأتي ذكر الأدب النسائي نجد أن أصحاب الاختيارات والمؤلفات الأدبية لا يتعرضون لذلك النوع الأدبي _ إلا فيما ندر_ بنوع من التفصيل فهم يذكرونه مشفوعاً بأبيات معدودة أو بضعة أقوال ، وكما ذكرنا من قبل فإنهم حصروا نطاق الحديث الشامل عن بعض الشاعرات في أضيق الحدود ، واهتموا بعنصر واحد وهن (فن الرثاء) كما

وجدنا عند الخنساء .. فقد ارتأوا أن هذا هو الفن الشعري الذي يليق بالمرأة ، وفى هذا ربط بين الفن والمجتمع ؛ فشعر المرأة أو أدبها بصفة عامة يسير في إطار البعد الاجتماعي ، أو الأعراف الاجتماعية ، وكأن المؤرخين ارتضوا بذلك هذا الدور لها بوصفها حارساً أميناً على مجموعة القيم أو الأعراف السائدة في ذلك المجتمع..

ومن ثم ففن الرثاء هو الأقرب لإبداعها ؛ فلا غرو إن وجدنا كافة النقاد يتكلمون عن رثاء الخنساء أو غيرها.. أما بقية الأغراض الشعرية الأخرى كالبطولة ، والقوة ، والفخر فكلها عناصر ترتبط بعنصر الذكورة..

وعليه يتم طرح هذا التساؤل: هل التقاليد العربية هي التي وضعت المرأة في هذا المكان والموقف الأدبي ؟

وهل ثمة قيود أخرى أدت إلى تهميش الإبداع الأدبي عند المرأة..

إننا كلما تقدمنا في المراحل التاريخية نجد أن الحال كما هو علية ، فإذا كان هذا هو حال المرأة قبل عصر التدوين ، فإننا في العصر الأندلسي_ أي بعد التدوين _ نجد أن أصحاب الأخبار _ لسبب أو لأخر _ أهملوا (كثيراً من النصوص الشعرية التي فاضت بها خواطر نسائية مبدعة ، على الرغم من أن الشعر النسائي الأندلسي ، غصن مثمر من روحة امتدت غصونها امتدادا واسعاً فأغدقت الثمار على ما حولها..) [١٨]

وإذا ما تقدمنا خطوة إلى العصر الحديث نجد أن حركة الأدب _ في مجملها _ قاصرة عند المساهمة الفكرية الناضجة في الإبداع عامة، وإبداع المرأة خاصة ، وكما تقول سحر توفيق [١٩] في رؤيتها عن كتابة المرأة بين التاريخ والنقد: بأنه في الوقت الذي يتجه الفكر العالمي إلى مناطق جديدة في الإبداع عامة _ أيا كان اختلافنا أو اتفاقنا معها _ يبدو الفكر

العربي لو كان 'مسيراً إما خلف الفكر العالمي أو خلف فكر موروث قاصر عن مواجهة العصر.

وعليه فإننا يجب أن نضع أدب المرأة وكل ما يخصها في سياقه الحقيقي ..

فلا يكفى أن نتوقف عند أدب المرأة العربية عبر مجموعة من المقتطفات النثرية التي تنسب في بعض الأحيان إلى بعض النساء الأعرابيات أو تترك مجهولة بدون نسب ، أو يشار إلى الاسم دون تلميح له أو لنسبه أو لظروفه وهكذا تصنف هذه المجموعة من الأقوال تحت مسمى أدب المرأة بما نسبغه عليها من مسحة بلاغية عالية ، فتأتى هذه اللمحات الأدبية في قالب من الوصايا أو التعليقات ، أو العبارات المفردة ، والطريف في ذلك كله أن الرواة وأصحاب المؤلفات التاريخية والأدبية في نسبهم لهذه الأقوال البليغة ما يبرهن على رفعة أدبية المرأة حينذاك ، ويؤكد مدى تفوقها في النتاج الأدبي..

وإذا كان المؤرخون قد اهتموا بجانب الوصايا الأنثوية، إلى جانب اهتمامهم بتعليقاتها اللغوية ، فهل هذا يقلل من قيمتها في الإنتاج الشعري ؟

بالطبع لا ، فبعد استقراء نتاج المرأة في هذا الفن (الفن الشعري) من خلال المصادر المختلفة ، وما قرأناه من أشعار خاصة بالمرأة ، وجدنا أن الكثير منهن قد نظمن في فنون شعرية مختلفة ، لا تقتصر على غرض بعينة ، وإنما في كافة الأغراض والفنون ..

صحيح قد كان منهن ليس لها القدرة على مزاولة الفن الشعري، ولكن لدى الكثيرات منهن القدرة العالية على روايته ونقده كان يقدم في محافل يحضرها الرجال والشعراء ، في جو من الوقار والحشمة ، يشهد

بذلك ما زخر به تراثنا العربي [٢٠] بهذه الأخبار والمواقف التي توضح هذا الجانب منذ الجاهلية والعصر الإسلامي والأموي حتى عصرنا الحديث .

ويكفى أنك لو قرأت بيتين (لجميل بثينة) وقمت بالتعليق عليهما لن تجد أرق وأبلغ وأوجز من تعليق سكينة بنت الحسين على ذلك.. يقول جميل: [٢١]

يقولون جاهد يا جميل بغزوة

وأي جهاد غيرهن أريد

لكل حديث عندهن بشاشة

وكل قتيل بينهن شهيد

ولقد علقت سكينة بنت الحسين على ذلك بقولها :

" أنه جعل في حديثنا بشاشة وكل قتلانا شهداء " [٢٢]

إن الحديث عن الإبداع لابد أن ينطلق من محورية إيمانية ترسخ في أذهاننا أن الإبداع في جميع المجالات العلمية والفنية والأدبية هو أساس تقدم الشعوب ، كما أن الإبداع لم يكن يوماً من الأيام ميزة أو حكراً على جنس بشرى بعينه ، ومن منطلق إيماننا بتجاور الجنسين ولا انفصال بينهما ؛ فإن المسئولية مشتركة بين الجنسين عبر مجموعة من الآليات ، أساسها الاجتهاد والتواصل والتكامل ؛ وعليه فإن تجاور الجنسين يجعلنا نؤمن بأن الإبداع خاصية إنسانية لا تكتسب بيولوجياً بالوراثة ولا تختص بنوع اجتماعي بعينه... فهو مرتبط بمجموعة من العوامل منها الاجتماعية، والثقافية، والنفسية ...الخ ذلك .

إن متابعة أدب المرأة _ في اعتقادنا _ أمر محفوف بالمزالق ، أو قل إنه بمثابة الطريق المحفورة بالمفاوز والتواءات السراب ، ومع ذلك

ففي إبداع المرأة الحقيقي نجد لوناً مغايراً ، ونكهة ذات مذاق خاص ، ورائحة تجسد علاقة المرأة بالذات والبيئة الاجتماعية من حولها ، ولا مفر من الاعتراف بأن هناك حالة من القمع مورست بشكل أو بأخر على الخطاب الإبداعي للمرأة ؛ مما جعل حضور المرأة على المستوى الإبداعي ككيان معادل للنصف الأخر من الذكورة فيه فجوة، نحاول بشكل أو بأخر أن نقلل منها اليوم ..

ولعل هذا ما دفع المرأة إلى الخروج على هذا الموقع الهامشي الذي فرض عليها بشكل من الجرأة توقاً إلى الأفق الإبداعي البعيد .

وإذا كنا قد وضحنا ما لأدب المرأة من قيمة في حد ذاته ، فهذا لا يمنع من التأكيد على أنة لا فواصل في الأدب ، فلا حدود واضحة بين الأدب الذي تعبر عنة وتكتبه المرأة ، والأدب الذي يعبر عنه ويكتبه الرجل إلا أن بعض هذا النتاج الأدبي يحمل طابعاً خصوصياً ، لأن الأدب يعبر عن سمات خالقة ، فالذات الشاعرة هي التي تبدع وتحاول أن تبحث عن موقعها المتميز في القصيدة أي النص الشعري أو النثري على وجه العموم ؛ لأن هذه الذات هي الذات الحاضرة في التجربة والفاعلة فيها ، والممثلة في نهاية الأمر الذات المبدعة ..

ومن ثم فنحن ندور في فلك ينقسم في داخله إلى مجموعة من المجرات التي تجسد بشكل أو بآخر مفهوم المرأة أو أدب المرأة أو الخطاب الأنثوي بشكل عام ، على أن مصطلح الخطاب النسائي كما ترى – عزه هيكل – [٢٣] مصطلح مستحدث يحاول أن يحل محل إشكالية " ثقافة النوع " كما في كتاب " أنثروبولوجيا المرأة في الأدب والنقد " هي معضلة لا تتعلق بكيان الرجل والمرأة ولكن بالوضعية الثقافية لكلك ما هو رجولي أو

أنثوي في المجتمع . أي أن ما يحدد السلوك البشري للرجل والمرأة ليس فقط التكوين البيولوجي ، ولكن البيئة والمناخ الفكري والاقتصادي والديني الذي ينشأ فيه الفرد رجلا كان أو امرأة . وعالمية القضية لا تمنع من أن تنظر إليها نظرة أكثر خصوصية ومحلية بغية الوصول إلى مكونات الخطاب النسائي المحلي في مقابل الخطاب النسائي العالمي ..

كما أن النسوية ليست مفهوما غريبا ، فترى مارجو بدران [٢٤] أنها ليست مفهوما غربيا ولا استعماريا كما يشاع .. إنها نتاج تطور مجتمع وفكر ، وتدلل على ذلك بظهور بذورها في العصر الحديث في مصر قبل أن يرددها الغرب ، وبدليل تأكيد الأديان السماوية على المساواة بين البشر ورفض الظلم والقهر .. ويبدو أن فكرة الفصل بين الجنسين لم تشغل بال المحدثين فقط ، يقول محيي الدين اللاذقاني: " يشير الجاحظ في كتابه " الحيوان " إلى فصل " القول في فصل ما بين الذكورة والأنوثة " الذي سيضعه في نهاية الكتاب ، ثم يظهر كتاب الحيوان وليس فيه من ذلك الفصل إلا أقله ، ولا أدري إن كانت الوريقات الجاحظية الموجودة في المتحف البريطاني هي من كتاب (النساء) المستقل ، أم من ذلك الفصل الناقص من الحيوان . ومهما كان أصلها ، فهي قادرة مع مجموعة إشارات من كتب أخرى على تحديد موقف الجاحظ من قضايا المرأة .."[٢٥]

إذن المسألة لا تخضع لمقياس ترمومتري واضح فحركية الأدب، وتطور الفكر ينتج نوعا خطابيا يمثل نزعة ذاتية لكلا العنصرين الذكورة أو الأنوثة ، ومن ثم سيصبح كل عنصر منهما مهموما بما يخصه في المقام الأول ، قد تتوحد الطرائق التعبيرية في موضوع ما ولكن بلا شك ستختلف الأحاسيس والمشاعر ، وأصدق مثال على ذلك مشاعر كلا الطرفين تجاه

الطفولة أي الطفل بوجه عام لو دققت فيها ستجد بونا شاسعا بين التعبيرين، وصدق كل منهما على ما يقول ، ولعل هذا ما دعا الدكتور جابر عصفور إلى تصوره الذي يقول فيه : " إن لكل كاتب وكاتبة طرائقه أو طرائقها الخاصة التي يحتال بها كلاهما على الكتابة كي تجود بعد ممانعة"(٢٦)

وإذا كان رامان سلدن في عرضه لحركة الضمينزم يعترف بأن وضع المرأة ظل عبر التاريخ على هامش النظام الاجتماعي (٢٧) وكأن مفهوم الأنثوية حرم من كافة حقوقه لدرجة أوصلته (أي الأنثى بصفة عامة) إلى حد القهر ..

وقد تطلب مني ذلك النظر إلى أشعارهن ونثرهن باعتبارهما من أصدق الوسائل التي تعبر عن طبيعة الإنسان – وبخاصة الشعر– وتصور منازعه الوجدانية ..

وعليه فقد قمنا برصد الوجدان الأنثوي في نفوس الشاعرات والكاتبات ، وذلك باختيار بعض النماذج الشعرية والنثرية التي تجسد ذلك.. وإن كنا قد خصصنا ذلك البحث عن المرأة في أدبنا القديم على أمل أن نقدم سلسلة متنوعة لأدب المرأة في كافة العصور المختلفة. ونحن حينما ندرس ذلك الأدب لا نحكم عليه عبر آلياته من حيث القوة أو الضعف ، أو عقد مقارنة بين أدب المرأة وأدب الرجل ، أو الفرق بين تجليات أدب الأنوثة ، وأدب الذكورة ، لأننا إن قمنا بذلك فسوف نظلم العنصر الأنثوي – وقد يكون الذكوري في بعض الحالات – نتيجة للفوارق البيولوجية والنفسية الكائنة بين الجنسين ..

وإذا كنا قد وصلنا إلى النتيجة السابقة التي تبرز الفوارق البيولوجية بين الطرفين فهذا يستدعي لأن نحكم بما قدمنا له من وجود أدب نسائي وشعر نسائي يستحق كل منهما أن يكون موضوعا لكثير من الدراسات المهمة في هذا الصدد .

ومن ثم فإننا سنتعامل مع أدب المرأة بشكل مباشر ، مع مسيرة المرأة عبر الحياة والفن ، فالمرأة التاريخ أقصد تاريخ المرأة ليس مجال بحثنا ، إنما يترك لعلماء التاريخ للكشف عن زيف أو صدق هذه الحقائق التاريخية ، وكذلك المرأة الشخص أو شخصية المرأة أمر يترك لعلماء النفس أما في الأدب ، وفي الفن الأدبي – على وجه الخصوص – فلقاء المرأة لا يكون إلا من خلال أدبها (شعر ونثرا) ، وليس من خلال أي منحى آخر ..

ولا يقصد الكاتب هنا أن نتخلى عن بعض العلوم الأخرى ولا يقصد الكاتب هنا أن نتخلى عن بعض العلوم الأخرى في دراسة الأدب، وإنما هي علوم استرشادية ، يسترشد بها الناقد ، ويستعين ببعضها إذا ما اقتضت الضرورة ذلك، وكانت الوجهة إلى ذلك العلم أمرا ملحا وضروريا في فهم ذلك النص .

وإذا كنا قد ألمحنا سابقا إلى أن غالبية المؤرخين وأصحاب التوجهات النقدية من القدامى قد وضعوا أدب المرأة حول موضوعات بعينها .. فنحن الآن بصدد إجلاء بعض الحقائق التي حجبت لسنوات طويلة في الظل عن إبداع المرأة، ومدى مشاركتها في كافة المواقف السياسية والحماسية ، ومدى تميزها بعاطفة وحنينية دفعت البعض منا إلى قصر فن الرثاء عليها نتيجة هذه العاطفة ..

حقا إنني وقفت أمام عالم المرأة لأجد فسحة من الفن المغاير لفن الرجل.. وهذا ما ستكشف عنه المداخل القادمة .